فلو تُرك هؤلاء الناس من غير علاج لقضوا في عمى البصر سنين كثيرة او لماتوا عمياً . وهنا ما يؤيد ذلك امرأة جاءت تستشيرني في نتنهام وعمرها ستون سنة مضى عليها كفيفة ثلاثون سنة ولدت في اثنائها ثلاثة اولاد لم ترَ احداً منهم . اصيبت وهي في الثلاثين من عمرها بالالتهاب المشيمي القزحي في عينيها كلتيهما وشفيت من هذا الالتهاب بالمعالجة لكن بقي منهُ اثرٌ في عينيها . ثم عاودها فزاد ضعف عينيها الى ان كفَّ بصرها تماماً وهي على ثروة طائلة فمضت الى بلدان اوربا تستشير اشهر اطباء العيون فيها وبقيت على ذلك الى ان اتت اليَّ وكانت حدقتا عينيها قد صارتا نقطتين صغيرتين تسدهما اللفا سداً تاماً فاستخرجت البلوريتين وصنعت لها حدقة صناعية في عينها اليسرى وهي الآن تقرأ وتكتب بسهولة

وهنا رجل آخر لما رأيتهُ كان قد مضى عليهِ اربعون سنة وهو اعمى فوجدت حدقتي عينيهِ مسدودتين بمادَّة كلسيَّة فازلتها منهما وصنعت لهُ حدقة صناعية في عينهِ اليسرى وهو يرى بها الآن جيداً و يقرأ و يكتب و يجول مثل غيرهِ من المبصرين

هذه خلاصة الخطبة وكأنَّ الخطيب احيا بها صناعة العرب في طب العيون كما سنبينهُ في فرصة اخرى واثبت ما كانَ يعوّل عليهِ الاطباء والدجالون في هذا القطر والقطر السوري كما يتذكرهُ الكهول

الطاعون

مذكرة للمستر بنشنغ مدير مصلحة الصحة ملحقة بتقرير اللورد كرومر

اول اشارة عن حدوث الطاعون في بورت سعيد بلغت ادارة الصحة في ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٠ وفي اليوم التالي قام المستر غراهم الى بورت سعيد ومعهُ الدكتور بتر بكتيريولوجي المصلحة للبحث عن الحادثة المشتبه بها واتخاذ الوسائل اللازمة لمقاومة الوباء اذا ثبت ان الحادثة منهُ . وزال كل شك بفتح الرمَّة وبالبحث بكتيريولوجياً في حادثة أُخرى كانت في المستشفى الاميري فثبت ان المرض هو الطاعون الدبلي بعينهِ ثم ثبت انهُ حدثت حوادث اخرى قبل هاتين الحادثتين كما سيجيء

والاثنان المشار اليهما كانا يسكنان غرفاً في البناء الكبير الذي فيهِ الالدرادو وراء شارع التجارة على مقربة من الرصيف احدهما يوناني والآخر سوري . ووجد لدى البحث ان امرأة توفيت في ذلك البناء في ٢٩ ابريل باعراض اتضح الآن انها اعراض الطاعون وقيل ايضاً

ان ايطاليًّا مات بمثل هذه الاعراض في ٢٧ ابريل في بيت قريب من ذلك البناء ويونانيًّا توفي في ٢٣ ابريل وكان ساكنًا في حي العرب ويونانيًّا آخر توفي في ٢٠ ابريل وكان ساكنًا قرب الالدرادو . وقد شخَّص الاطباء الاوربيون الذين عالجوهم انهم ماتوا بالانفلونزا المصحوبة بالفالمون او الانفلونزا المصحوبة بالتهاب سحايا الدماغ ولكن ثبت بالبحث حينئذٍ ان مرضهم كان الطاعون وانهم ماتوا بهِ ولذلك فالطاعون ظهر في بورت سعيد من قبل ذلك الحين ثم ثبت ان يونانيًّا مات في الطاعون في حي الافرنج في ٥ ابريل وعلمت حوادث اخرى قبلها حتى شهر مارس يظهر من وصفها ما يدعو الى الترجيح بانها كانت من الطاعون . ثم ان سرعة انتشار الوباء في الاسبوع الاول من شهر مايو وظهوره في كل اقسام حي الوطنيين يدلان على انهُ كان في المدينة قبل ان بلغ خبرهُ ادارة الصحة بزمن طويل

كتب المستر غراهم ما يأتي

" لما وصلتُ الى بورت سعيد كان قد دخل المستشفى اثنان من حي العرب وفي اليوم التالي (وهو ٢ مايو) أُخبرنا عن اثنين آخرين في جهتين مختلفتين من احياء الوطنيين . وفي ٣ مايو توفي شخص بالطاعون في حي العرب وحدثت حادثة اخرى في اليوم الخامس . وفي اليوم السادس دخل المستشفى وطنيان واوربي وفي اليوم السابع اصيب وطني من حي الوطنيين

" فثبت حالاً ان العدوى منتشرة في المدينة كلها وان امامنا واقدة لها حالتان الصفتان

" الاولى انها الطاعون الدبلي نفسهُ

" والثانية انها منتشرة انتشارًا كليًّا في كل القسم الوطني من المدينة وانتشارًا جزئيًّا في القسم الاوربي

" ولذلك رأينا ان لا بد لنا من اطباء واناس خبيرين بعملية التطهير وجهزنا من العمال يقسم فرقًا ويوزَّع في احياء المدينة لاجراء التدابير اللازمة لمقاومة الوباء التي اجريناها في الاسكندرية وهؤلاء لم نجدهم في بورت سعيد فاتينا من الاسكندرية باناس خبيرين بالتطهير وباناس يديرون العمل واستخدمنا عمالاً من بورت سعيد

" وفصلنا جانبًا كبيرًا من المستشفى الاميري وخصصناهُ بالمصابين من الوطنيين . اما الاوربيون المصابون فوضعوا كلهم ما عدا اربعة في المستشفى الاميري في قسم الامراض المعدية الى ان أُعدت مستشفياتهم الخصوصية . وقد اصبنا في ما عملنا لاننا وجدناهُ اسهل من إعداد بناء خاص بعيد عن المدينة

" ورأينا في اول الامر ان الاهالي يكرهون ان يؤخذ مرضاهم الى المستشفى وقد قاوموا

عمّال الحكومة اكثر من مرة واتلفوا امتعة الحكومة واضروا احياناً برجالها. وقد أُزيلت هذه الكراهة بان طُلب من وجوه المدينة فعينوا فرقاً من العوّاد حسب درجات الاهالي وكانت كل فرقة تزور المستشفى وترى المصابين الذين قاربوا الشفاء فيخبروها بما لقوا من حسن المعاملة والخدمة حتى ترجع وتخبر اقاربهم بذلك. وكانت النتيجة ان كثيرين جاءوا بعد ذلك من انفسهم ودخلوا المستشفى وان البعض اخبروا الحكومة عن مصابين اصيبوا من عيالهم

" والذين خالطوا المصابين كانوا يعزلون في ابنية كبيرة كل فريق منهم على حدته لا يختلط الرجال بالنساء ولا عائلة منهم باخرى ويبقون تحت المراقبة ستة ايام يقدَّم لهم فيها الطعام الجيد والذين كانوا منهم من العمّال المكتسبين دُفعت اليهم اجور بدل منعهم من العمل. ولم يظهر الوباء الاَّ في اثنين منهم وكان ظهوره قبل آخر اليوم الثاني من عزلهم ولذلك غيرنا طريقة العزل حينما قلَّ قلق الناس وقل الخوف من انتشار الوباء بهربهم من مكان الى آخر فصرنا نسمح للعائلة التي خالطت المصاب بان تتطهَّر هي وامتعتها كلها و يبقى نساؤها واولادها في البيت و يعرُض رجالها المتسببون انفسهم مرتين في اليوم على طبيب القسم الذي هم فيه

" وظلت الحوادث تحدث في كل شهر مايو ولكننا بقينا مالكين ناصية الوباء. وزادت حوادثهُ في اوائل شهر يونيو لانهُ ظهرت حوادث جديدة في حي العرب وفي اكواخ مجتمعة قرب معمل الغاز. واستمرَّ الوباء في هذه الاكواخ استمراراً الجأ مصلحة الصحة الى هدمها وبناء غيرها في مكان صحي فهدمت وكانت من الخشب ونُقل خشبها الى مكان غربي حي العرب وبنيت فيه. وخيف اولاً من ان جراثيم العدوى تكون لاصقة بهذه المواد فيظهر الوباء في الاكواخ التي تبنى منها ولذلك جمع العمال كل ما وقع منها من الحطام وقت هدمها وحرقوهُ. وبقوا تحت المراقبة وغسلت ايديهم واقدامهم بالمطهرات. ولم يظهر الوباء في هذه الاكواخ بعد ذلك ولا ظهر في العمال الذين هدموها

" اما اصل العدوى وطريق وصولها الى بورت سعيد فلا يعلمان تماماً لانهُ لم تقم ادلَّة قاطعة على ذلك. ولكن هذه المدينة معرَّضة تمام التعرُّض للوباء حتى يُعجَب من عدم دخوله اليها قبل ذلك الحين فانها واقعة بين المشرق والمغرب والسفن الآتية من البلدان الموبوءة تصل اليها كل يوم واهاليها من وطنيين واوربيين يعتمدون في معيشتهم على الاتجار مع هذه السفن بالبيع والشراء فمن الغريب انها بقيت سليمة من الوباء مدة طويلة

" وايضاحاً لذلك نقول ان سكانها الوطنيين اكثرهم من الفحامين الذين يحملون الفحم الى السفن المارَّة بمدينتهم فهم في اتصال دائم مع السفن الآتية من الموانى الموبوءة. وتأخذ

السفن منها كثيرين من الوفادين رتبوا وقتاً ثم تعهدوهم وقد تقف في طريقها في موانئ موبؤة او يدخلها اناس مصابون بالوباء . ونوتية قوارب المؤونة وعددهم كثير جداً يتجرون مع كل السفن الواردة على بورت سعيد من غير تمييز . ولا يخفى ان العدوى قد تكمن في مكان معما شددت المراقبة الصحية فيمكن نقلها من السفن الى البر بالقحامين او الوفادين او نوتية قوارب المؤونة وعليه لا يجد الوباء اقل صعوبة في دخوله هذه المدينة

" ثم ان بورت سعيد كانت في أوائل العام متصلة بسورية واسيا الصغرى والبحر الاسود وجزائر اليونان وأعلن رسمياً وجود الوباء في المواحل السورية بعد ذلك . فمن المحتمل ان العدوى بلغت بورت سعيد من مكان اقرب اليها من الهند

" ولكن ان كانت هذه الظنون لا تغني فتيلاً اذا لم توجد الادلة القاطعة فالبحث عن الطرق التي يمكن ان تدخل بها العدوى لا يخلو من النفع . وتعيين طبيب في بورت سعيد وتسجيل اسماء الداخلين قد يفيدان في تقليل الخطر بازدياد المراقبة . واذا عُمل بمثل المذكرة المرفوعة في ٢٨ اغسطس وهو مراقبة الوفادين امكن منع دخول العدوى بهم

" وتبقى مسألة القحامين وهي مسألة كثيرة المصاعب ولكن يرجى ان يوجد اسلوب يقلل الضرر الذي يمكن ان ينتج منهم على قدر الامكان

" اما مسألة فعل الجرذان في نقل العدوى فلم تجد ثبتاً جديداً في ما شوهد في بورت سعيد . فقد وُجدت الجرذان الميتة من الطاعون في جانب من المدينة ولم يظهر الوباء فيه . ووجدت جرذان مطعونة في اماكن أخرى من المدينة وظهر فيها الطاعون بعدئذ

" ويظهر انهُ قد بولغ كثيراً في ما تفعلهُ الجرذان والأولى ان تعدّ في جملة الحيوانات التي يفتك الطاعون بها كما يفتك بالناس لا ان يحسب لها شأن كبير في تولد الوباء ونقله ونشره

" ومما يدلُّ على كيفية حصول العدوى وفائدة النظافة حادثة شيخ الحرافين فان وظيفتهُ مراقبة الذين يحرقون الحطام والمواد الفاسدة وكان عنده دائماً برميل من مزيلات العدوى ليغسل بهِ يديهِ وقدميهِ وايادي رفاقهِ واقدامهم وأعطي حذاء لكي يحتذي بهِ فضلَّ المشي حافياً قائلاً انهُ اسهل عليهِ . وفي السابع عشر من مايو ترك عملهُ الظهر ووُجد في المساء فاقداً الشعور فنُقل الى المستشفى وبهِ طعنة كبيرة ثم مات من الطاعون الدبلي دلالة على ان العدوى وصلتهُ من بعض المواد الملطخة التي اتى بها ليحرق

" واصيب في بورت سعيد ٩٢ بالطاعون أُتي بخمسة وسبعين منهم الى المستشفى ووجد ١٧ موتى خارج المستشفى ومات من الذين دخلوا المستشفى ٢١ اي مات ٢٨ في المئة من الذين عولجوا واذا

اضفنا اليهم الذين وجدوا موتى خارج المستشفى اي لم يعالجوا بلغ عددهم ٤٦ في المئة

"واذا اخرجنا من عدد هؤلاء كل الذين ماتوا من قصور القلب عن قضاء وظيفته قلّ عدد الوفيات من الطاعون نفسه كثيراً جداً فان كثيرين ماتوا وهم في دور النقه لانهم جلسوا او مشوا او عملوا عملاً آخر طفيفاً شعروا انهم قادرون على عمله

"اما من حيث المنازل التي يقيم فيها المطعونون فوجد ان اكواخ القصب والحصر مثل الاكواخ التي يقيم فيها المصطافون في رأس البر تقام بسرعة وبقليل من النفقة وهي وافية بالغرض يوضع فيها المطعونون ويعالجون في ايام القيظ واذا اشتدّ الحرّ سهل وضع سقف آخر لها فوق سقفها تخفيفاً للحر . واذا وقع المطر واشتدّ البرد امكن تبطينها بالطين والقش

"والاكواخ التي اقمناها في بورت سعيد استعملناها للاوربيين الذين ضاق عنهم المستشفى الاميري الى ان تمّ مستشفى اليونان ومستشفى الطليان

"وقد جرّبنا جانباً من المصل الواقي الذي صُنع في القاهرة حسب اسلوب هفكن وطعمنا به بعض المصابين في المستشفى وبعض المطهّرين ولكن لم نستطع ان نصل الى نتيجة قطعية لاسباب معلومة ولم يطلب احد ان يطعّم به من تلقاء نفسه"

وابيح للاهالي ان يتركوا المدينة ويذهبوا الى حيث يشاؤون ولم يوضع حولها نطاق صحي ولكن ركب الذين ساروا منها في القوارب بطريق بحيرة المنزلة الى دمياط والمطرية وغيرهما من المدن التي على شاطىء البحيرة اعتقاد ان الناس الذين يهاجرون المدينة وبهم الوباء يفضلون هذا الطريق على سكة الحديد مخافة ان يكشف امرهم

وكل الذين وصلوا الى دمياط والمطرية من بورت سعيد كانوا يراقبون طبياً يُغسّلون وتطهّر ثيابهم ويبقون في بيوتهم تحت المراقبة سبعة ايام فكشفت عدة حوادث مشتبه فيها في دمياط ولكن لم يوجد ميكروب الطاعون الاّ في واحدة منها ويحتمل ان غيرها كان من الطاعون ايضاً ولكن الطعنات كانت قد تقيّحت فيستحيل اكتشاف الميكروب فيها . ولم يسمح لاحد ان يسافر في بحيرة المنزلة من بورت سعيد الاّ الى دمياط والمطرية

ثم اقيمت نقطة طبية في كبوتي على بحيرة المنزلة قرب بورت سعيد لمنع من فيهم اعراض مشتبه فيها من السفر

وراقب اطباء الصحة الناس مراقبة دقيقة في كل مديريات الوجه البحري . وقد بلغ مصلحة الصحة خبر اناس كثيرين مشتبه فيهم من اماكن مختلفة ولكن الفحص البكتيريولوجي لم يثبت وجود الطاعون في احد منهم

وعانى رجال الصحة المشاق في بورت سعيد وقام عليهم الغوغاء مرة او مرتين ولكن لم يحدث من ذلك ضرر كثير . وكان اشد المقاومة من الاوربيين لا من الوطنيين . واهالي بورت سعيد يعتمدون في معيشتهم على الاتجار مع السفن المارَّة بهم فقلَّت اعمالهم مدَّة الوباء لانهُ لم يسمح لاحد من الركاب ان ينزل في مدينتهم حينئذٍ . فحسبوا ان خسارتهم مسبَّبة عن رجال الصحة لا عن الحجر الصحي الذي وضعتهُ البلدان الاخرى على السفن الواقفة في بورت سعيد . وزاد جهلهم لحقيقة الحال بالمقالات التي كانت تنشر في الجرائد المحلية ويهان بها رجال الصحة ويزرأ بهم

الاسكندرية — لم يحدث في الاسكندرية حادثة مشتبه فيها حتى ٧ مايو اذ ماتت امرأة في حي القرموص وثبت بعد ان رمتها انها ماتت بالطاعون . وكانت هذه المرأة من جامعي الخرق وفي الحي الذي وجدت فيهِ ميتة مخازن كثيرة للخرق . ثم حدثت حوادث اخرى في ذلك الحي بينها فترات قصيرة وحدثت حوادث اخرى في احياء اخرى والفترات بينها قصيرة حتى لم يكد يبقى حي من احياء المدينة لم تحدث فيهِ حادثة او حادثتان . الاَّ ان الوسائط الفعالة كانت تستأصل شأفة الوباء حالاً . وقد بقي الوباء في المدينة زمناً طويلاً ولكنهُ لم يبلغ مبلغاً عظيماً وسبب ذلك ان كل حادثة كانت تُتبع جيداً و يعزل كل من اتصل بها وتجرى التطهير على اتم ما يكون

وبلغت الحوادث كلها من ٨ مايو الى ١٣ نوفمبر وقت آخر حادثة أُعلمت بها مصلحة الصحة ٣٨ حادثة انتهى ٣٠ منها بالموت

وحالما عُلمت الحادثة الاولى أُجريت التدابير الصحية التي وفت بالمراد في الوباء السابق ولا يزال كثير منها جارياً وسيبقى جارياً السنة كلها - واذ ظهر الطاعون او لم يظهر مثل مراقبة الركاب الآتين من موانئ البحر المتوسط ومراقبة كل الفنادق الحقيرة والقهوات

و يصعب علينا ان نحقق ما اذا كان الطاعون قد ظهر في الاسكندرية سنة ١٩٠٠ من عدوى بلغتها جديداً او من عدوى كانت كامنة فيها

ولا يخفى ان بين الاسكندرية وازمير و بيروت ونحوها من الموانئ تجارة واسعة . وأُعلن وجود الطاعون في ازمير بعدما أُعلن وجودهُ في بورت سعيد بزمن قصير بيرب اليونانيين . والاخبار الواردة من ازمير في هذا الشأن قليلة موجزة ومع ذلك علم منها انهُ حدثت عدة حوادث اخيراً في جوارها من مرض معدٍ لهُ اعراض رئوية قتَّالة وقد شخص اطباء الصحة هناك انهُ الانفلونزا الخبيثة . الاَّ ان وصف هذه الحوادث يدل على انها مثل الطاعون الرئوي لاسيما وان تشخيصها لم يؤيَّد بالفحص البكتيريولوجي . وقد ذُكر قبلاً ان الاطباء في بورت سعيد

شخصوا الحوادث الاولى التي شاهدوها من حوادث الطاعون بالانفلونزا الدماغية والانفلونزا المصحوبة بالفلغمون

وكل الوسائل التي رآها رجال الصحة لازمة استُعملت في الاسكندرية من غير تعب ولكن ما دام الوباء موجودًا في موانئ كثيرة شرقي القطر المصري وغربيهُ فلا يبعد ان يظهر فيهِ من وقت الى آخر ولو ثبت نجاح الوسائل التي استخدمت في الاسكندرية وبورت سعيد سنة ١٨٩٩ و١٩٠٠ ولذلك احسنت الحكومة الخديوية بمنحها مبلغًا من المال هذه السنة لينفق على الوسائل الواقية من الوباء لانهُ اذا عُرفت الحادثة الاولى التي تحدث في مدينة من مدن القطر المصري البحرية واتخذت الوسائل اللازمة حالاً فلا اظن ان الوباء ينتشر بعد ذلك انتشارًا كثيرًا

واستلفتُ انظار نظامتكم في ختام هذا التقرير الى الاعمال العظيمة التي قام المستر غراهم والماجور غارنر والدكتور بتر والدكتور غوتشلك لاستئصال الوباء في بورت سعيد والاسكندرية خدمة للحكومة الخديوية (الامضا) ه . ه بنتشنغ

رواية أمينة

الفصل السادس

جاء شهر رمضان . الصوم نهارًا والولائم ليلاً . تزاور الاصدقاء والخلان ومخرت السفن في البوغاز نقلُ الشبان وهم يغنون و يطربون والهوانم يرقبنهم من وراء الشبابيك ويرشقنهم بالازهار والرياحين . واوقدت المصابيح الكثيرة في حوانيت بيرا . وتوالت الليالي الراقصة في شكلي بعد ان كان منذ سنوات قليلة من اقل الاحياء عمارةً . هذه المراقص قذًى في عيون الهوانم لانهنَّ محرومات من الذهاب اليها ولان كثيرين من الشبان عكفوا عليها وتركوا عادتهم القديمة الذهاب في القوارب ونشد اناشيد الحب والغرام

ظهرت مجالي الزينة في كل القصور ما عدا قصر نصرالله باشا لان نافذ بك لم يكن قد تعافى . شفي من مرضهِ وذهب الى السرعسكرية مرتين ولكنهُ كان لا يزال ضعيفًا جدًّا لا يستطيع الخروج ليلاً

كانت الليلة الثالثة من رمضان وكان الحرُّ شديدًا فلم نكد ننهض عن الطعام حتى خرجنا الى الحديقة ووضعت المصابيح في الرواق فاتانا من نورها ما يكفي ليرى بعضنا بعضًا .